بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة صلاة الجمعة للشيخ الأستاذ محمد خير الطرشان

**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**

الحَمدُ للهِ ثُمَّ الحَمدُ لله ، الحَمدُ للهِ الذِي هَدَانَا لِهَذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهتَدِيَ لَولا أَنْ هَدَانَا الله ، يَا رَبَّنَا لَكَ الحَمدُ كَمَا يَنبَغِي لِجَلَالِ وَجهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلطَانِك ، سُبحَانَكَ لا نُحصِي ثَنَاءً عَلَيكَ أَنتَ كَمَا أَثنَيتَ عَلَى نَفسِك ، وَأَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَه ، لَه الْمُلكُ وَلَهُ الحَمدُ يُحيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير ، وَأَشهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا وَحَبِيبَنَا وَقُرَّةَ أَعيُنِنَا سَيِّدَنَا مُحَمَّداً ، عَبدُهُ وَرَسُولُهُ وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُه . اللهُمَّ صَلِّ عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الكَرِيم ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ الغُرِّ الْمَيَامِين ، وَمَن تَبِعَهُم بِإِحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّين.

أَمَّا بَعدُ فَيَا عِبَادَ الله ، فَأُوصِي نَفسِي وَإِيَّاكُم بِتَقوَى اللهِ تَعَالَى ، وَأَحُثُّكُم عَلَى طَاعَتِهِ وَالتَّمَسُّكِ بِكِتَابِه ، وَالالتِزَامِ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَمِنهَاجِهِ إِلَى يَومِ الدِّين.

يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي القُرآنِ الكَرِيم: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد} [سورة ق (19)].

أيها الإخوة المؤمنون: حَدِيثُنَا لَيسَ عَن الْمَوت ، فَالْمَوتُ حَقّ ، وَيُؤمِنُ بِهِ كُلُّ الخَلق ، إِنَّمَا حَدِيثُنَا عَن لَحَظَاتٍ تَسبِقُ الْمَوت ، رُبَّمَا يُسَمِّيهَا البَعضُ بِسَكَرَاتِ الْمَوت ، وَرُبَّمَا يُسَمِّيهَا البَعضُ الآخَرُ بِالأَنفَاسِ الأَخِيرَة ، التِي يُعِيدُ فِيهَا الإِنسَانُ حِسَابَاتِه ، وَيُرَاجِعُ نَفسَهُ وَيَتَذَكَّرُ مَا قَدَّم ، وَيَندَمُ عَلَى مَا فَرَّط ، وَيَتَحَسَّرُ عَلَى مَا فَات ، وَلَكِن هَيهَاتَ هَيهَاتَ أَن يَنفَعَ النَّدَم ، وَيَتَمَنَّى فِي مِثلِ تِلكَ اللَّحَظَاتِ أَن يَطُولَ بِهِ العُمُر ، لِيَتَصَدَّقَ وَلِيُصَلِّي ، وَلِيُقَدِّمَ مِنَ العَمَلِ الصَّالِح ؛ مَا يَجعَلُ عَرضَهُ عَلَى اللهِ تَعَالَى عَرضَاً صَالِحَاً . لَكِنَّ اللهَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَخبَرَنَا فِي القُرآنِ الكَرِيمِ فَقَال: {إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُون} [سورة يونس (49)].

أيها الإخوة: هَذَا الحِسَابُ وَهَذِهِ النَّظَرَاتُ قَبلَ تِلكَ السَّكَرَات ، لا بُدَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَن يَتَفَكَّرَ بِهَا ، وَيَكفِينَا مَوعِظَةُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ لِسَيِّدِنَا عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ فِيمَا يَروِيهِ فَيَقُول: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ بِمِنكَبِي فَقَال: (كُن فِي الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيل) وَكَانَ عَبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ يَقُول: إِذَا أَمسَيتَ فَلا تَنتَظِرِ الصَّبَاح ، وَإِذَا أَصبَحتَ فَلا تَنتَظِرِ الْمَسَاء ، وَخُذ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِك ، وَمِن حَيَاتِكَ لِمَوتِك} [أخرجه البخاري].

أيها الإخوة المؤمنون: لِنَتَأَمَّل فِي وَصِيَّةِ النَّبِيِّ الْمُوجَزَةِ البَلِيغَة ، التِي هِيَ مِن جَوَامِعِ الكَلِم . (كُنْ فِي الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيل) مَنْ هُوَ الغَرِيبُ –أيها الإخوة- حَتَّى يَطلُبَ رَسُولُ اللهِ مِنَّا أَن نَكُونَ فِي دُنيَانَا مِثلَهُ أَو نُشَابِهَه ؟ الغَرِيبُ هُوَ الذِي دَخَلَ دَارَاً لَيسَت دَارَه ، وَنَزَلَ أَرضَاً لَيسَت أَرضَه ، وَحَلَّ بِمَنزِلٍ لَيسَ مَنزِلَه ، لا بُدَّ أَن يَعُودَ إِلَى وَطَنِه ، وَأَن يَرجِعَ إِلَى بَلَدِه ، وَأَن يَترُكَ الأَرضَ التِي نَزَلَ بِهَا بِشَكلٍ مُؤَقَّت ، وَكَذَلِكَ الإِنسَان فِي الدُّنيَا ، إِنَّمَا هُوَ غَرِيبٌ عَنهَا ، فَهُوَ لَم يُخلَق لِكَي يَخلُدَ أَو يُخَلَّدَ فِيهَا ، إِنَّمَا الخُلُودُ فِي دَارِ الآخِرَة ، إِنَّمَا الخُلُودُ فِي دَارِ البَقَاء ، وَهَذِهِ الدُّنيَا دَارُ مَمَرٍّ وَلَيسَت دَارَ مَقَرّ ، إِذَاً كُن فِي الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيب ، فَلا تَتَعَلَّق بِهَا وَلا بِزِينَتِهَا ، وَلا تَتَمَسَّك بِشَهَوَاتِهَا ، وَلا تَغُرَّنَكَ مَلَذَّاتُهَا ، فَهِيَ فَانِيَةٌ زَائِلَةٌ وَلَيسَت بَاقِيَة . (كُن فِي الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيل) وَعَابِرُ السَّبِيلِ يَنزِلُ أَرضَاً أَو بَلَدَاً أَو مَوطِنَاً ، سَاعَةً أَو سَاعَات ، يَومَاً أَو أَيَّاماً ، شَهرَاً أَو شُهُورَاً ، ثُمَّ يُغَادِرُ الأَرضَ التِي نَزَلَ فِيهَا ، وَكَذَلِكَ الإِنسَان فِي هَذِهِ الدُّنيَا ، يَعِيشُ فِيهَا سَنَوَات ، يَعِيشُ فِيهَا أَيَّامَاً مَحدُودَة ، وَيَقضِي فِيهَا أَنفَاسَاً مَعدُودَة ، ثُمَّ يُغَادِرُ هَذِهِ الدُّنيَا ، فَيَلقَى وَجهَ رَبِّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَلَيسَ لَهُ مِنهَا إِلا مَا قَدَّمَ لِآخِرَتِه ، لَيسَ لَهُ مِن هَذِهِ الدُّنيَا إِلا مَا عَمِلَ فِيهَا لِلآخِرَة ، وَأَمَّا مَا أَكَلَ وَشَرِبَ فَهَذَا لِدُنيَاه ، وَأَمَّا مَا لَبِسَ وَبَنَى وَسَكَنَ فَهَذَا لِمَعِيشَتِه ، أَمَّا آخِرَتُهُ فَلا يَبقَى لَهَا إِلا مَا قَدَّمَ مِن عَمَلٍ صَالِح ، أَو تَقَرَّبَ إِلَى اللهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ، مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَو عَمَلٍ يَبُرُّ فِيهِ نَفسَهُ وَالنَّاسِ أَجمَعِين.

أيها الإخوة: يُروَى أَنَّ أَحَدَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّة ، قِيلَ هُوَ سُلَيمَانُ بنُ عَبدِ الْمَلِك ، وَقِيلَ هُوَ هِشَامُ بنُ عَبدِ الْمَلِك ، لَقِيَ رَجُلَاً مِنَ الصَّالِحِينَ يُقَالُ لَهُ سَلَمَةُ بنُ دِينَار ، وَيُكَنَّى بِأَبِي حَازِم ، فَقَالَ لَه: يَا أَبَا حَازِم ، مَا بَالُنَا نَكرَهُ الْمَوتَ وَنُحِبُّ الحَيَاة ؟ فَأَجَابَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَقَال: يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنِين ، لِأَنَّكُم عَمَّرتُم دُنيَاكُم وَخَرَّبتُم آخِرَتَكُم ، فَكَرِهتُم الانتِقَالَ مِن دَارِ العَمَارِ إِلَى دَارِ الخَرَاب . ظَنَنتُم بِأَنَّ هَذِهِ الدُّنيَا هِيَ دَارُ البَقَاء ، فَأَقَمتُم فِيهَا القُصُور ، وَشَيَّدتُم فِيهَا الْمَآذِن ، وَبَنَيتُم فِيهَا الضِيَّاع ، وَاستَمتَعتُم وَأَكَلتُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ مَا لَذَّ وَطَاب ، وَنَسِيتُمُ الآخِرَةَ وَخَرَّبتُم آخِرَتَكُم ، فَكَرِهتُمُ الانتِقَالَ مِن دَارِ العَمَارِ التِي عَمَّرتُمُوهَا بِأَيدِيكُم ، إِلَى دَارِ الخَرَابِ التِي لَم تَعمَلُوا لَهَا وَلَم تَستَعِدُّوا لِلِقَاءِ اللهِ تَعَالَى ، فَبَكَى سُلَيمَانُ أَو هِشَامُ مِن هَذَا الكَلَام ، وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا حَازِم ، أَتُشَارِكُنِي أَو تَبقَى مَعِي وَلَكَ نِصفُ مُلكِي ؟ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنِين ، أَتُقَاسِمُنِي جَنَاحَ البَعُوضَة ؟ وَالدُّنيَا لا تُسَاوِي عِندَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَة ، وَلَو كَانَت تُسَاوِي أَكثَرَ مِن ذَلِكَ لَمَا سَقَى مِنهَا كَافِرَاً جَرعَةَ مَاء . الكَافِرُ هُوَ الذِي جَحَدَ بِوَحدَانِيَّةِ الله ، وَالذِي أَنكَرَ رُبُوبِيَّةَ اللهِ تَعَالَى ، وَمَعَ ذَلِكَ يُنَعِّمُهُ اللهُ فِي الدُّنيَا ، وَيُغدِقُ لَهُ العَطَاء ، وَيَعِيشُ بِرَغَدٍ وَأَمَانٍ وَرَفَاهِيَة . قَالَ: أَتُقَاسِمُنِي جَنَاحَ البَعُوضَةِ يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنِين ؟ فَازدَادَ بُكَاءُ الخَلِيفَةِ مِن هَذَا الكَلَامِ الذِي تَرِقُّ لَهُ القُلُوبُ وَالأَفئِدَة.

أيها الإخوة: رَبُّنَا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يُذَكِّرُنَا فِي القُرآنِ الكَرِيمِ بِسَاعَاتٍ تَسبِقُ الْمَوت ، فَهَل أَعدَدنَا لَهَا ؟ هَذِه السَّاعَاتُ ذَكَرَهَا اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَولِه: {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي} أَي إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحُ عَظمَ التُّرقُوَة {وَقِيلَ مَنْ رَاق} مَن يَرقِي مِن مَرَضِ الْمَوت ؟ {وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاق} أَيقَنَ أَنَّ الفِرَاقَ آتٍ لا مَحَالَة {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاق \* إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاق} [سورة القيامة (26-30)] أَينَ الطَّبِيبُ الْمُدَاوِي ؟ يَحكِي لَنَا رَبُّنَا سُبحَانَهُ فِي هَذِهِ الآيَات ، تَعَلُّقَ ابنِ آدَمَ بِالدُّنيَا ، حَتَّى إِلَى اللَّحَظَاتِ الأَخِيرَة ، التِي تَبلُغُ فِيهَا رُوحُهُ عَظمَ التُّرقُوَة ، فِي آخِرِ مَبلَغٍ لَهَا فِي جَسَدِ الإِنسَان ، يَقُولُ لِأَولَادِه: اطلُبُوا الطَّبِيب ، ابحَثُوا لِي عَن الْمَشَافِي ، لَوَ فِي أَورُبَّا أَو أَمرِيكَا أَو فِي أَيِ مَكَانٍ آخَرَ مِنَ العَالَم ، أَنفِقُوا مَا استَطَعتُم مِنَ الْمَال ، حَتَّى أَضمَنَ أَنفَاسَاً زَائِدَةً فِي هَذِهِ الدُّنيَا ، وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى تَمَسُّكِ ابنِ آدَمَ فِي هَذِهِ الدُّنيَا ، هَذَا التَّمَسُّكُ فِي الدُّنيَا لَو كَانَ مِن وَرَاءِهِ عَمَلٌ صَالِح ، وَلَو كَانَ فِيهِ عَمَلُ خَير ؛ لازدَادَ الإِنسَانُ مِنَ الخَير ، لَكِنَّ الإِنسَانَ الذِي يَطمَعُ فِي الدُّنيَا ، يَكُونُ مُعرِضَاً عَن اللهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا الذِي زَهِدَ فِي الدُّنيَا ، وَعَمِلَ فِيهَا لِآخِرَتِهِ ، فَيَقُول: يَا مَرحَبَاً بِلِقَاءِ الله . قال النبي (مَن أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَه ، وَمَن كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَه) [أخرجه ابن ماجه] وَهَكَذَا كَانَ شَأنُ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ يَفرَحُونَ بِلِقَاءِ الله ، عِندَمَا كَانَ يُحَدِّثُهُم عَن الجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا ، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لَهُم فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيم ، كَانُوا يَزهَدُونَ فِي الدُّنيَا وَزُخرُفِهَا وَزِينَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا وَمَلَاذِّهَا ، وَيُقبِلُونَ عَلَى الآخِرَة ، فَإِن نَادَى الْمُنَادِي لِلجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَامُوا ، وَإِن نَادَى الْمُنَادِي لِلإِنفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَامُوا ، وَإِن نَادَى الْمُنَادِي لِلمُنَافَسَةِ وَالْمُسَارَعَةِ فِي الخَيرَاتِ تَسَابَقُوا وَتَنَافَسُوا ، {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُون} [سورة المطففين (26)] أَمَّا الدُّنيَا فَلا يَنبَغِي أَن نَتَنَافَسَ فِيهَا أَو عَلَيهَا ، لِأَنَّ الدُّنيَا زَائِلَة ، وَمَن يَملِكُ مِنَ الدُّنيَا كَمَا مَلَكَ هَارُونُ الرَّشِيد ؟ خَلِيفَةُ الْمُسلِمِينَ ، الذِي كَانَ يَلبَسُ قُلُنسُوَةً عَلَى رَأسِهِ كُتِبَ عَلَى طَرَفِهَا الأَيمَنِ الحَج ، وَكُتِبَ عَلَى طَرَفِهَا الأَيسَرِ الغَزو ، كَانَ يَحُجُّ عَامَاً وَيَغزُو عَامَاً فِي سَبِيلِ الله ، هَارُونُ الرَّشِيدُ لَم يَكُن صَاحِبَ لَيَالٍ حَمرَاء ، وَلا قُصُورٍ مَلِيئَةٍ بِالغَانِيَاتِ وَالْمُسكِرَاتِ كَمَا يُرَوَّجُ عَنهُ فِي كُتُبِ الأَدَبِ وَالقَصَصِ الْمُزَوَّرَةِ الْمُلَفَّقَةِ التِي كَتَبَت التَّارِيخَ بِأَحرُفٍ سَودَاء ، إِنَّمَا هَارُونُ الرَّشِيدُ كَانَ يَحُجُّ عَامَاً وَيَغزُو عَامَاً ، وَيَعمَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى ، وَهُوَ الذِي ارتَقَى بِمُستَوَى الدَّولَةِ الإِسلَامِيَّة ، وَرَفَعَ مُستَوَى أَفرَادِهَا ، وَكَانَ يَحرِصُ عَلَى كُلِّ مَا فِيهِ الخَيرُ لِلبَشَرِيَّةِ جَمعَاء . لَمَّا جَاءَهُ أَجَلُهُ وَدَنَت وَفَاتُه ، قَالَ لَهُ الطَّبِيب: لَقَد حَانَ الأَجَلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنِين ، فَلَم يَعُد فِي الطِّبِّ لِشِفَاءِكَ دَوَاء ، فَقَالَ لِمَن حَولَه: خُذُونِي إِلَى قَبرِي ، فَإِنِّي أُحِبُّ أَن أَرَى قَبرِي قَبلَ أَن أُدفَنَ فِيه ، فَحُمِلَ هَارُونُ الرَّشِيدُ إِلَى قَبرِه ، فَنَظَرَ إِلَيهِ وَبَكَى ، وَنَاجَى رَبَّهُ فَقَال: إِلَهِي ! يَا مَن لا يَزُولُ مُلكُه ، ارحَم مَن قَد زَالَ مُلكُه.

هَؤُلاءِ أَيُّهَا الإِخوَة ، لَم يَتَمَسَّكُوا بِمُلكٍ دُنيَوِيٍّ زَائِل ، وَلَم يَتَنَافَسُوا عَلَى جَنَاحِ البَعُوضَةِ لِيُصِيبُوا مِنَ الدُّنيَا ، إِنَّمَا حَمَلُوا هَمَّ الأُمَّة ، وَقَامُوا بِوَاجِبَاتِهِم أَحسَنَ قِيَام ، وَكَانَ أَحَدُهُم يَقُول: لَو أَنَّ شَاةً عَلَى شَاطِئِ الفُرَاتِ أَو دِجلَة ، كُسِرَت رِجلُهَا لَخَشِيتُ أَن أُسأَلَ عَنهَا يَومَ القِيَامَة.

اللهُمَّ أَصلِح أَحوَالَنَا ، اللهُمَّ ثَبِّت إِيمَانَنَا ، اللهُمَّ تَوَلَّنَا بِعَينِ عِنَايَتِك ، اللهُمَّ انظُر إِلَينَا بِعَينِ رِعَايَتِك ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير ، وَبِالإِجَابَةِ جَدِير .

بتصرف